

## تجارب الأمم و فلسفة التدوين التاريخي لدى مسكويه

يوسف الهادي\*

### چکیده

نویسنده در این نوشتار ضمن اشاره به چپهای متعدد کتاب تجارب الأمم به مزیت‌های چاپ اخیر پرداخته، سپس تفاوت‌های اثر یاد شده با دیگر آثار تاریخی مشابه و شیوه تاریخ‌نگاری مسکویه را به اجمال تبیین کرده است.

منذ العام ۱۹۰۹ و حتی ۱۹۲۶ م تواصل نشر بعض أجزاء کتاب تجارب الأمم للفيلسوف و المؤرخ أبي علي مسكويه (۳۲۰ - ۴۲۱ هـ / ۹۳۲ - ۱۰۳۰ م) على أیدی جمع من المستشرقين أمثال ليونه كابتاني الإيطالي و آمدروز الإنجليزي - و مارغليوث الإنجليزي أيضاً. لكن النسخة الكاملة لأجزاء الكتاب جميعها ظلت محجوبة إلى أن توفر على تحقيقها الدكتور أبو القاسم إمامي الاستاذ بجامعة طهران فأصدرها مع ذيولها في ثمانية أجزاء خصص الأخير منها للفهارس. و إذا كان إصدار بعض أجزاء الكتاب فيما مضى قد اعتمد على مخطوطة واحدة هي المحفوظة بمكتبة أياصوفيا بتركيا، فإن طبعة الدكتور إمامي - فضلاً عن كونها قد شملت طبع أجزاء الكتاب كلها مع ذيوله - اعتمدت على مخطوطات أخرى محفوظة في شتى المكتبات لكنها اتخذت أيضاً مخطوطة مكتبة أياصوفيا أصلاً لأنها المخطوطة الوحيدة الكاملة الشاملة للأجزاء جميعها. و الكتاب بطبعته الحالية يتضمن:

۱ - كتاب تجارب الأمم لأبي علي مسكويه و هو يغطي وقائع السنوات من (۲۹۵ - ۳۶۵ هـ / ۹۰۷ - ۹۷۹ م).

\* پژوهشگر و مصحح متون تاریخی.

٢- ذيل تجارب الأمم للوزير البويهى العالم والأديب محمد بن الحسين، أبى شجاع الروذراورى (٤٣٧- ٤٨٨ هـ / ١٠٤٥- ١٠٩٥ م)، بدأ بتاريخه من حيث انتهى مسكويه في سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م و ختمه بوقائع العالم ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م.

٣- قطعة من تاريخ هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩- ٤٢٨ هـ / ٩٦٩- ١٠٥٦ م) الذى ولى ديوان الانشاء ببغداد و المؤرخ الشهير، و قد وضعه ذيلاً لتاريخ خاله المؤرخ و الطبيب ثابت بن سنان المتوفى سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م و القطعة الباقية من هذا التاريخ التى طبعت مع تجارب الأمم تتضمن الجزء الثامن منه و يشمل السنوات من ٣٨٩- ٣٩٣ هـ / ٩٩٨- ١٠٠٢ م.

و يشكل عنوان كتاب مسكويه تجارب الأمم بحد ذاته مؤشراً على المنحى الذى اتخذه المؤلف فى تدوين التاريخ و الغرض منه، فالتاريخ ليس رواية وقائع فحسب بل هو اكتساب تجارب من وقائع حدثت فى الماضى للاستفادة منها فيما يستجد من وقائع تحدث فى الحاضر و المستقبل أو ما عبر عنه بنظرية «التاريخ يعيد نفسه»، و هو فى نص عبارة مسكويه «تجربة لايزال يتكرر مثلها و يُنتظر حدوث شبهها و شكلها»، و يفسر ذلك بأن «أمور الدنيا متشابهة و أحوالها متناسبة». و هو يلخص فى مقدمة كتابه فلسفة كتابة التاريخ، فيقول بلهجة الحكيم - و هو حكيم حقاً و قد عرف بهذا بين معاصريه - و الذى غربل مصادره جيداً، على أن نتذكر أنه اشتغل فى فترة من عمره قيماً على خزانه كتب الوزير ابن العميد، و فى فترة أخرى قيماً على خزانه كتب عضدالدولة البويهى، و هما المكتبتان اللتان ضمنا نفائس الكتب التى جلبت إليهما من شتى البقاع و فى شتى الفنون. يقول مسكويه: «إني لمتا تصفحت أخبار الأمم و سير الملوك، و قرأت أخبار البلدان و كتب التواريخ، و جددت فيها ما تستفاد منه تجربة لاتزال تتكرر مثلها و يُنتظر حدوث شبهها و شكلها، كذكر مبادئ الدول و نشاء الممالك، و ذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، و تلافي من تلافاه و تداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، و إغفال من أغفله و اطرحه إلى أن تأدى إلى الاضمحلال و الزوال». و هو يرى فى معرفة الحوادث الماضيه ما يجعلها «إماماً يُقتدى به» أى قدوة تتخذ لمن يصادفه نفس الموقف فيقول: «و رأيت هذا الضرب من الأحداث إذا عُرف له مثال مما تقدم و تجربة لمن سلف، فاتخذ إماماً يقتدى به، حذر ممّا ابتلي به قوم و تمسك بما سعد به قوم - فإن أمور الدنيا متشابهة و أحوالها متناسبة - و صار جميع ما يحفظه الإنسان من هذا الضرب كأنه تجارب له و قد دُفع إليها و احتنك بها، و كأنه قد عاش ذلك الزمان كله، و باشر تلك الأحوال بنفسه، و استقبل أموره استقبال الخبر،

و عرفها قبل وقوعها، فجعلها نصب عينه و قبالة لحظه؛ فأعد لها أقرانها و قابلها بأشكالها. و شتان بين من كان بهذه الصورة و بين من كان غراً غمراً لا يتبين الأمر إلا بعد وقوعه و لا يلاحظه إلا بعين الغريب منه، يحيره كل خطب و يستقبله و يدهشه كل أمر يتجدد له» (ص ٤٧ - ٤٩).

و ما دام مدار كتابة التاريخ هو الاستفادة من تجاربه فإن أكثر الناس استفادة منه يجب أن يكون الساسة و الوزراء و قادة الجيوش كما يرى مسكويه عندما يقول «جمعت هذا الكتاب و سميته تجارب الأمم، و أكثر الناس انتفاعاً به و أكبرهم حظاً منه، أوفرهم قسطاً من الدنيا كالوزراء و أصحاب الجيوش و سؤاس المدن و مدبري أمر العامة و الخاصة؛ ثم سائر طبقات الناس»، و يرى أن الاستفادة متحققة منه مهما كانت صغيرة: «و أقل الناس حظاً لا يخلو أن ينتفع به في سياسة المنزل و عشرة الصديق و مداخلة الغريب» (ص ٤٩). و لما كان مسكويه قد اعتمد في كتابة الحوادث التي سبقته على كتابات المؤرخين المتقدمين الذين يقف الطبري على رأسهم، و كان كثير من تلك الكتابات مشوباً بالأساطير و قصص الأسمار التي يجري الحديث بها لاستجلاب النوم كما يقول، بادر إلى حذف تلك الأساطير و الخرافات، و عليه فقد أنقذ نفسه من أن يكون ناقلاً يدون كل ما وجده في الكتب التي سبقته، يقول بهذا الصدد: «وجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تجرى مجرى الأسمار و الخرافات التي لا فائدة فيها غير استجلاب النوم بها و الاستمتاع بأنس المستطرف منها، حتى ضاع بينها و تبدد في أثنائها، فبطل الانتفاع به»، و كان أول عمل قام به هو حذفه من تاريخه الحوادث التي وقعت قبل الطوفان معللاً ذلك بقوله: «لقللة الثقة بها و لأن ما نقل إلينا أيضاً لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره» (ص ٤٩).

لكن علينا التذكير بأن مسكويه لم يكن ناقلاً فحسب، فهناك الحوادث التي عاصرها بنفسه و كان في قلبها و عايش أبطالها، كتب في مطلع حوادث ٣٤٠ هـ / ٩٥٢ م يقول: «أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة فهو عن مشاهدة و عيان أو خبر محصل يجرى عندي خبره مجرى ما عاينته، و ذلك أن مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد (رض) خبرني عن هذه الواقعة و غيرها بما دبره و ما اتفق له فيها، فلم يكن إخباره لي دون مشاهدتي في الثقة به و السكون إلى صدقه، و مثل أبي محمد المهلب (رحمه الله) خبرني بأكثر ما جرى في أيامه و ذلك بطول الصحبة و كثرة المجالسة. و حدثني كثير من المشايخ في عصرهما بما استفاد منه تجربة، و أنا أذكر جميع ما يحضرنى ذكره منه، و ما

شاهدته و تجربته بنفسى فسأحكيه أيضاً» (١٧٠/٦)

نطالع عناوين كتب التاريخ قبل مسكويه فنجد تاريخ الرسل و الملوك للطبري و نجد تواريخ كبار الأمم من مضى منهم و من غير لحمزة الأصفهاني، و تاريخ اليعقوبي و مروج الذهب و معادن الجواهر للمسعودي، و جميعها تحمل كلمة التاريخ حتى مروج الذهب الذي قال عنه مؤلفه: «كتابي هذا فى التاريخ و أخبار العالم...»، لكننا مع أبى على مسكويه نطالع العنوان الأكثر التصاقاً بالتجربة الإنسانية ليس على المستوى الفردى بل على مستوى الشعوب و الأمم: تجارب الأمم، على أن نتذكر أن الرجل كان عالم أخلاق يهتم بتهديب النفوس، و هل يوجد ما هو أذى لتهديب النفوس من تجارب الأمم؟ مع صدور هذه الطبعة الكاملة و المتقنة لهذا الكتاب التى بذل فيها محققها جهداً كبيراً، نستطيع القول إن مكتبتنا العربية قد غنمت مصدراً غنياً بالتجارب و الوقائع افتقدناه طويلاً من واجهات و رفوت محلات بيع الكتب و اقتصر وجوده على زوايا كبريات المكتبات العامة نظراً لكون طبعته الصادرة قبل أكثر من ٧٠ عاماً أصبحت نادرة الوجود.